

ملاح شخصية أبي الفتح الاسكندري وطرقه في الكدية

بقلم : ابراهيم حمادو

لقد بات من الآراء المألوفة أن موضوع مقامات الهمذاني يقوم على الكدية والمكدين وأن حيل أبي الفتح الاسكندري وانتهاره لغفلة الناس هما اللذان ينتزعان من القراء ابتساماتهم ويشدانهم إلى فن المقامات .

لكن الأمر في الواقع ليس على هذا النحو من البساطة إذ لم يفرغ الهمذاني كل مقاماته في قالب الكدية ولم يجعلها جميعها لتصوير حيل المكدين . ومن يتتبع تطور أبي الفتح الاسكندري وتقلباته عبر مجموعة المقامات يجد أن التعريف المتواتر لكلمة الكدية لا ينطبق عليه في حالات كثيرة ، بل أن حيل المكدين وهو العنصر الطريف في فن المقامات عند كل المقامين قد خلت منه مقامات عديدة عند الهمذاني . لهذا فمن المفيد ضبط ملاح شخصية أبي الفتح الاسكندري وابرار طرق الكدية عنده وأنماط تصرفاته مع الناس (1) .

فالماكدي لغة هو المتسول والشحاذ وقد ورد هذا المعنى مثلاً في خاتمة المقامة الابليسية في قول عيسى بن هشام : « يا أبا الفتح شحذت على ابليس اناك

(1) لم نجد دراسة مركزة تعنى بملاح شخصية أبي الفتح الاسكندري وإنما هي في الجملة انطباعات عامة عنه أو دراسة وجيزة لكديته في نطاق موضوع أوسع . وأهم هذه الدراسات هي حسب الترتيب الزمني :

- Blachère et Masnou : al-Hamaḍāni, choix de maqamat, Paris 1957

- عبد الملك مرتاض : فن المقامة في الأدب العربي الجزائي 1980

- M. Tarchouna : Les marginaux dans les récits picaresques arabes et espagnols, Tunis, 1982.

لشحاذا ! » (2) وقد تمكن الاسكندري فعلا من أن يجعل ابليس يتصدق عليه بعمامته. وكذلك في قوله في الفزارية : «شحاذا، ورب الكعبة أخاذا، له في الصنعة نفاذا، بل هو فيها أستاذ! (3) » لكن كلمة المكدي قد تطورت عبر العصور، ومنذ القرن الثالث إذ نجد إشارات إليها في كتاب البخلاء للمجاحظ (4) حتى أصبحت تعني بتأثير واضح من جهة المقامات : الشحاذا والتحليل فيه بشتى الوسائل وما يفعله أبو الفتح الاسكندري في مختلف أطواره وتصرفاته . وقبل الفحص عن أمر أبي الفتح تجدر الملاحظة أن إحدى عشرة مقامة من مجموع الواحدة والخمسين أو الاثنتين والخمسين (5) لا يظهر فيها هذا البطل ولا يؤثر في احداثها وهي : الغيلانية والاهوازية والبغدادية والمغزلية والنهيديّة والناجمية والخلفية والصيمرية والصفريّة والتميمية والبشرية وأخيرا الرصافية التي تقتضي منا بعض التحفظ لما حذفه منها الشيخ محمد عبده . وهذا العدد من المقامات يمثل خمس كتاب الهمداني وضمنه مقامات طارت شهرتها كالبشرية والصيمرية والمغزلية والبغدادية . ويعتبر هذا ضعفا في التأليف في عرف من كتب المقامات بعد الهمداني كالحريري واليازجي ، لذا تفادوه وجعلوا المكدي في مقاماتهم بطلا ملازما للأحداث ومحركا لها بلا انقطاع . وقد يكون مردّ هذا الضعف في نسق التأليف إلى أن الهمداني وهو مبتكر هذا الفن الأدبي قد كان يشق طريقا في التأليف لم تتضح كل معالاه بعد ، فاضطرب . واضطرابه يظهر في نواح أخرى من تأليفه خصوصا في رسم ملامح شخصية بطله المكدي . ونحن لا نعتقد مثل الثعالبي والحصري (6) أنه ألف أربعمئة مقامة في الأصل

(2) المقامات ص 185 من طبعة بيروت بشرح الشيخ محمد عبده وهي الطبعة التي نتمدها في هذه الدراسة .

(3) المقامات ص 70 .

(4) البخلاء ص 46 وما بعدها . دار المعارف 1958 .

(5) طبعة استنبول 1888 .

(6) الثعالبي : يتيمة الدهر ج 4 ص 257 القاهرة 1936 .

الحصري : زهر الاداب ج 1 ص 273 تحقيق زكي مبارك 1953 .

فيكون ما ضاع منها اليوم سببا في اظهار هذا الاختلال في النسق التأليفي والتطور المنطقي في حياة الأبطال وتوالي الأحداث . بل الواقع هو أن الهمداني لم يتطور في ذهنه فكرة تأليف كتاب متماسك الحبكة يتطور فيها مكديه وراويته عيسى ابن هشام تطورا منطقيا مع الأحداث . فقد قصد الهمداني إلى وصف أبي الفتح الاسكندري في مناسبات عديدة فجعله تارة شابا وأخرى كهلا وأخرى أيضا شيخا مسنا بدون أي ترتيب زمني عبر الكتاب .

1 - شخص أبي الفتح الاسكندري :

فأبو الفتح الاسكندري « شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم ويسكت وكأنه لا يعلم » في القريضية (7) . وهو « شاب في زي ملء العين ولحية تشوك الأخدعين وطرف قد شرب ماء الرافدين » في البلخية (8) . وهو « فتى ذو لثغة بلسانه وفلج بأسنانه » في المجاعية (9) وهو « شاب يعلوه صَعَارٌ » في الارمنية (10) . ويقول له عيسى بن هشام في العلمية (11) . « يا فتى ومن اين مطلع هذه الشمس ؟ » وهو « فتى يسمع وكأنه يفهم ويسكت وكأنه يندم » في الشعرية (12) . وهو « فتى به رَدْعُ صُفَارٍ » في السارية (13) وهو « شاب قصير من بين الرجال محفوف السبال » ، في المطلبية (14) .

ويكون أبو الفتح في سن الكهولة إذ هو « رجل قد لث رأسه بيرقع حياء » في الازادية (15) وهو « رجل على فَرَسِهِ مُخْتَنِقٌ بِنَفْسِهِ » في

(7) المقامات ص 5 .

(8) المقامات ص 15 .

(9) المقامات ص 127 .

(10) المقامات ص 187 .

(11) المقامات ص 203 .

(12) المقامات ص 223 .

(13) المقامات ص 233 .

(14) المقامات ص 246 .

(15) المقامات ص 10 .

السجستانية (16) . وهو « رجل ليس بالطويل المُتَمَسَّد ولا القصير المُتَرَدَّد » في الجرجانية (17) أي معتدل القامة . لكنه « رجل حَزَقَةٌ » في المكفوفية (18) أي قصير وبدين إلى حد الاستدارة . وهو « رجل لطيف البنية مريح الحليّة في صورة الدُمَيّة » في الحلوانية (19) .

أما في المقامة الشيرازية فقد طال زمن الأحداث بين أول القصة وآخرها حتى ظهر فيها الاسكندري في مرحلتين من عمره : هو في أول المقامة شاب « ذو شارةٍ وجمال وهیئة وكمال » وهو في نهايتها : « كهل قد غَبَرَ في وجهه الفقر وانتزَفَ ماءه الدهر » (20) .

ويرى أبو الفتح في مقامات أخرى شيخا . فهو « شيخ ظريف الطبع طريف المجون » في الخمرية (21) . وهو « شيخ غيّرهِ الشيب » في الوعظية وكذلك في البخارية والسجستانية . وفي مقامات كثيرة تنكشف حقيقة البطل للراوي عيسى بن هشام فيقول : « فإذا هو شيخنا أبو الفتح الاسكندري (22) » ولا شك أن كلمة الشيخ هنا لا تدل حتما على سن معينة إذ قد أطلقها عليه أحيانا بعد أن جعله في نفس المقامة في عداد الكهول كما هو الشأن في الازادية والسجستانية والمكفوفية وغيرها ، وإنما هي تدل على إعجاب ابن هشام به وتقديره له حتى سما به إلى درجة من العلم يستحق بها لقب شيخ (أو أستاذ كما في المقامة الفزارية حين قال فيه : « شحاذ ورب الكعبة أخاذ له في الصنعة نفاذ بل هو فيها أستاذ ») ولفظة الشيخ ستكون صفة قارة لكل المكدين في المقامات بعد

(16) المقامات ص 19 .

(17) المقامات ص 46 .

(18) المقامات ص 78 .

(19) المقامات ص 173 .

(20) المقامات ص 168 .

(21) المقامات ص 243 .

(22) مثلا ص ص 72 - 85 .

الهمداني كيفما كان سن من سينعت بها . وهذا الاضطراب في رسم صفات البطل الخلقية وفي ترتيب المقامات وفقا لتطور الأبطال في السن سيحرص كتاب المقامات على إزالته فلن نجده مثلا عند الحريري أو اليازجي .

وهناك نوع آخر من الاضطراب في تصوير ملاح شخصية المكدي لكنه لا يصل إلى نفس الحد من الضعف والخطورة إذ هو يبدو كأنه من مستلزمات صناعة المكدي . فهو يتسب إلى قبائل مختلفة حسبما يقتضيه الظرف والمصلحة . فهو « من الاسكندرية بالغور الاموية » أي من بلاد الأندلس (23) لكنه يدعي في البلخية فيقول : « نمتني قريش ومُهدّ لي الشرف في بطائعها » (24) ويقول في السجستانية : « أنا بأكورة اليمّ وأحدوثة الزمّن » (25) ويقول في الجرجانية : « نمتنسي سُلَيْمٌ وَرَحَبْتُ بي عَبَسٌ » (26) ويقول في العراقية : « أنا عَبْسِيّ الاصل اسكندري الدار » (27) ؛

الا أن ما تستلزمه الكدية في المرتبة الأولى كما سيثبت ذلك عند كل المقامين بعد الهمداني هو التغير المستمر في هيئة المكدي وبالتالي فليس في ذلك ما قد يعاب على كاتب المقامات إذ عليه يرتكز عنصر التشويق في المقامة .

ففي المقامة الأزادية يظهر الأسكندري و« قد لف رأسه حياء ... » (28) وفي البنخية هو « في زِيّ مِلْءِ الْعَيْنِ وَلِحْيَةٍ تَشُوكُ الْأَخْدَعَيْنِ وَطَرَفٌ قَدْ شَرَبَ مَاءَ الرَّافِدَيْنِ » (29) وفي السجستانية هو « رجل على فرسه مُحْتَنِقٌ بِنَفْسِهِ » (30) وفي الكوفية هو في أسوأ الأزياء . وفي الأسدية هو في سوق

(23) المقامات ص 46 وكذلك 64 .

(24) المقامات ص 17 .

(25) المقامات ص 19 .

(26) المقامات ص 46 .

(27) المقامات ص 142 .

(28) المقامات ص 10 .

(29) المقامات ص 15 .

(30) المقامات ص 19 .

حمص « قد قسام على رأس ابن وبنية بجـ رآب وعُصَيَّة » (31) وهو في
الاذرييجانية عاصر خمرة لذا هو « بِرُكُوةٍ قد اعتَضَدَهَا وعَصَا قد
اعْتَمَدَهَا ودَنِيَّةٌ قد تَقَلَّسَهَا وفُوطَةٌ قد تَطَلَّسَهَا » (32) وهو في
الجرجانية « كَثُّ الْعُثْنُونِ » (33) فلم يُعْرَفَ . وفي الالهوازية هو « رجل
في طِمْرَيْنِ في يُمْنَاهُ عُكَّازُهُ وعلى كتفيه جَنَازَةٌ » (34) ولكن لا ندري
بالضبط هل البطل هنا هو الاسكندري أم غيره، وإن كانت أوجه الشبه بينهما
كثيرة. وهو في الفزارية « رَاكِبٌ تَامٌ الْآلَاتِ شَاكِي السَّلَاحِ » (35) وفي
المكفوفية هو « أَعْمَى مَكْفُوفٌ في شَمْلَةٍ صُوفٍ يَدُورُ كَالْخُدْرُوفِ
مُتَبَرِّئًا بِأَطْوَلِ مِنْهُ مُعْتَمِدًا على عَصَا فيها جَلَّاجِلٌ يَخْبِطُ الأرضَ
بها على ابقاع ... » (36) وهو في البخارية « ذو طِمْرَيْنِ قد أُرْسِلَ
صَوَانًا وَاسْتَتَلَى طِفْلًا عُرْيَانًا يَضِيقُ بِالضَّرِّ وَسُعُهُ وَيَأْخُذُهُ الْقُرُّ
وَيَدْعُهُ لَا يَمْلِكُ غَيْرَ الْقِشْرَةِ بُرْدَةً وَلَا يَكْتَفِي لِحِمَايَةِ رِعْدَةٍ » (37).
وهو في القزوونية « بِسَيْفٍ قد شَهَرَهُ وَزِيٌّ قد نَكَّرَهُ » (38) وهو في
الساسانية زعيم كتيبة من بني ساسان « قد لَقُوا رُؤُوسَهُمْ وَطَلَوْا بِالْمَغْرَةِ
لَبُوسَهُمْ وَتَأَبَّطَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حَجَرًا يَدُقُّ بِهِ صَدْرَهُ » (39)
وهو في المجاعية « ذو لَشْغَةٍ بِلِسَانِهِ وَفَلَجٍ بِأَسْنَانِهِ » (40) وهو في
الحمدانية « في طِمْرَيْنِ أَكَلَ الدَّهْرُ عليهما وشرب » (41) وهو في

(31) المقامات ص 37 .

(32) المقامات ص 44 .

(33) المقامات ص 46 .

(34) المقامات ص 56 .

(35) المقامات ص 69 .

(36) المقامات ص ص 78 - 79 .

(37) المقامات ص 82 .

(38) المقامات ص 90 .

(39) المقامات ص 92 .

(40) المقامات ص 127 .

(41) المقامات ص 152 .

الشرازية « قد غَبَرَ فِي وَجْهِهِ الْفَقْرُ وَانْتَزَفَ مَاءُهُ الدَّهْرُ وَأَمْسَلَ قَنَاتُهُ السُّقْمُ وَقَلَّمَ أَظْفَارُهُ الْعُدْمُ بِوَجْهِهِ أَكْسَفَ مِسْنُ بِأَلِيهِ وَزِيَّ أَوْحَشَ مَنْ حَالِهِ وَلَثَّةُ نَشْفَةٍ وَشَفَّةُ قَشْفَةٍ وَرَجُلٌ وَحَلِيَّةٌ وَبَدِ مَجَلَّةٌ وَأَنْيَابٌ قَدْ جَرَعَهَا الضَّرُّ وَالْعَيْشُ الْمُرُّ » (42) وهو في الخلوانية « لطيف البنية مليح الحليّة في صورة الدُّمِيّة » (43) وهو في الارمنية « يَعْلُوهُ صَغَارٌ وَتَعْلُوهُ أَطْمَارٌ » (44) وهو في الملوكية « اكْبُشْ شَاكِيِي السَّلَاحِ » كما هو الشأن في الفزارية (45) وهو في السارية « به رَدْعُ صُفَّارٍ » وله هيبه في مجلس واليها ، يقف له كل من بالمجلس ويتجاسر على الوالي فيعنفه بالقول (46). وهو في الخمرية امام يطيل في صلاة الصبح ويحمل المصلين على ضرب عيسى بن هشام وجماعته لأنهم دخلوا المسجد وعليهم رائحة الخمرة . لكنه في النصف الثاني من نفس المقامة نجده يوصف بأنه « شَيْخٌ طَرِيفٌ الطَّلَبُ طَرِيفُ السُّجُونِ » (47) وهو في المطلبية : « قَصِيرٌ مِسْنُ بَيْسِنِ الرِّجَالِ مَحْفُوفُ السُّبَالِ ... » (48) .

وباستقصائنا هذا لصفات أبي الفتح الاسكندري في هيئته وزيه حيث وجد ذكرهما في المقامات نرى تقلبات عديدة نستنتج منها استنتاجين : الأول أنها سر نجاح هذا المكدي في صنعته وسينحو منحاه فيها أبو زيد السروجي في مقامات الحريري وميمون بن خزام في مقامات البازجي . أما الاستنتاج الثاني فإن اضطراب أبي الفتح بين الطول والقصر والبدانة والنحافة والعزة والذل بل بين فصاحة اللسان واللثغة فيه ، أمر يدل على غفلة في تصور ملاح بطل هو

(42) المقامات ص 168 .

(43) المقامات ص 173 .

(44) المقامات ص 187 .

(45) المقامات ص 228 .

(46) المقامات ص 233 .

(47) المقامات ص 243 .

(48) المقامات ص 246 .

العمود الفقري في المقامات وسيتجنب الحريري واليازجي الوقوع في مثل هذا الاضطراب .

2 - فصاحة أبي الفتح الاسكندري وبلاغته :

أما الصفات القارة التي يتصف بها أبو الفتح الاسكندري والتي جعلت له مقلدين وأحفادا عبر التاريخ فهي فصاحته وبلاغته وسرعة بديهته نثرا وشعرا وهذا ثابت في كل المقامات التي ورد ذكره فيها .

ففي الاسدية يقول عيسى بن هشام : « كان يبلغني من مقامات الاسكندري ومقالاته ما يُصْغِي إليه النَّفُورُ ويتنفضُ له العصفور ويُرَوِّى لنا من شعره ما يمتزج بأجزاء النفس رقةً وَيَغْمُضُ عن أوهام الكهنَةِ دِقَّةً » (49) ويقول عيسى أيضا في البصرية : « ما استأذن على حِجَابِ سَمْعِي كلامٌ رَائِعٌ أْبْرَعُ وأَرْفَعُ وأَبْدَعُ مما سمعتُ منه » (50) ويدور في الفزارية حوار بين عيسى وأبي الفتح وقد أعجب الراوي بكلام المكدي نثرا : « فأين شعرك من كلامك ؟ فقال : وأين كلامي من شعري ؟ » (51) ولا أحد يعرف في أي الصنفين من الكلام هو أبرع أو في الشعر أم في النثر ! وفي المضيرية يصف عيسى رفيقه الاسكندري إلى دعوة التاجر فيقول : « ومعى أبو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه والبلاغة يأمرها فتطيعه » (52) ويقول عيسى في العراقية : « ما هذا اللسان ومن أين هذا البيان ؟ » فيجيبه : « من العلم رُضْتُ صِعَابَهُ وخُضْتُ بِحَارَهُ . فقلت : بأي العلوم تَتَحَلَّى ؟ فقال : لي في كل كِنَانَةٍ سهمٌ » (53) ويوصف الاسكندري في حضرة سيف الدولة بأنه « رجل يَطَأُ

(49) المقامات ص 29 .

(50) المقامات ص 66 .

(51) المقامات ص 70 .

(52) المقامات ص 104 .

(53) المقامات ص ص 142 - 143 .

الفَصَاحَةِ بِنَعْلَيْهِ وَتَقِفُ الْأَبْصَارُ عَلَيْهِ . وَأَنْ لَهُ « عَارِضَةٌ » (أي اللّسن والبيان) (54) . وهو في الخلفية صاحب فضل وعقل كبيرين إلى حد أن عيسى بن هشام وقد « ولي أحكام البصرة » آنذاك يقترح عليه أن يخدمه الرفيق ويشاركه في السعة والضيق مقابل ملازمته له (55) ويقول له عيسى في النيسابورية بعد أن سمعه يهجو قاضيا بلسان فصيح وكلام بليغ : « سقى الله أرضا أنبت هذا الفضل وأبًا خلّفَ هذا النّسل » (56) . ويقول عنه أيضا في العلمية : « فسمعت من الكلام ما فتق السمعَ ووصل إلى القلب وتغلغل في الصدر ، فقلت : يا فتى من أين مطلع هذه الشمس ؟ » (57) وهو مع بعض منافسيه من المكدين في الديناريه « وما منهما الا بديع الكلام عجيب المقام الدّ الخصام » (58) ويرحب عيسى بالاسكندري في السارية قائلا : « مرحبا بأمر الكلام ، وأهلا بضالة الكيرَامِ » (59) .

فلا يشك أحد بعد هذا أن أبا الفتح الاسكندري فحل من فحول الشر والشعر وأنه في الحقيقة يمثل جانبا كبيرا من عبقرية بديع الزمان الهمداني ولكنه رغم طول باعه ووفرة علمه يبدو باهتا ضئيلاً إذ اما قارناؤه بأبي زيد السروجي أو بميمون بن خزام وقد تضلعا بعده في علوم مختلفة كالفقه واللغة والطب والتنجيم وغيرها. ولذا فسنبخلص من كل هذه الصفات الخلقية والأدبية إلى فلسفة أبي الفتح الاسكندري في الحياة وإلى نظرته إلى الناس .

3 - نظرة أبي الفتح الاسكندري إلى الناس والحياة :

انه يدعي أن الدهر خژون وقد أتى على ما كان فيه من جاه وسعة عيش وانحط به إلى الذل والفقر .

(54) المقامات ص 151 .

(55) المقامات ص 196 .

(56) المقامات ص 200 .

(57) المقامات ص 203 .

(58) المقامات ص 222 .

(59) المقامات ص 234 .

فهو يقول في القريضية :

أَمَّا تَرَوْنِي أَتَغَشَّى طِمْرًا
مُمْتَطِيًّا فِي الضَّرِّ أَمْرًا مُرًا ...
... وَكَانَ هَذَا الْحُرُّ أَعْلَى قَدْرًا
وَمَاءُ هَذَا الْوَجْهِ أَغْلَى سِعْرًا
ضَرَبْتُ لِلِسَّرِّ قِبَابًا خُضْرًا
فِي دَارِ دَارًا وَإِسْوَانٍ كِسْرِي
فَأَنَقَلَسَبَ الدَّهْرُ لِبَطْنٍ ظَهْرًا
وَعَادَ عُرْفُ الْعَيْشِ عِنْدِي نُكْرًا (60)

ونفس المعنى نجده في الدرجانية والبصرية والمكفوفية والبخارية .

ولذا فهو ينقم على هذا الدهر ويذمه ويرى أنه عدو لأصحاب الفضل
والأدب أمثاله كما فعل في العراقية قائلا :

بُؤْسًا لِهَذَا الزَّمَانِ مِنْ زَمَنٍ
أَصْبَحَ حَرْبًا لِكُلِّ ذِي أَدَبٍ
كُلُّ تَصَارِيفِ أَمْرِهِ عَجَبٌ
كَأَنَّمَا سَاءَ أَمُّهُ الْأَدَبُ (61)

فلم يبق له الا أن يتعامل مع الحياة والناس بما يستوجبه هذا الحال فهو يموه
على الناس وينصح بذلك في قوله في الازادية :

فَقَضَّ الْعُمَرَ تَشْبِيهًا
أَرَى الْأَيَّامَ لَا تَبْقَى
عَلَى النَّاسِ وَتَمُوتُ بِهَا
عَلَى حَالٍ فَأَحْكِيهَا
فَيَوْمًا شَرُّهَا فِيَّ
وَيَوْمًا شَرَّتِي فِيهَا (62)

(60) المقامات ص 8 .

(61) المقامات ص 145 .

(62) المقامات ص 12 - 13 .

وينصح بالتقلب في الأحوال في البلخية :

إِنَّ لِدَائِهِ عَيْبِيدًا أَخَسَدُوا الْعُمَرَ خَلِيطًا
فَهُمْ يُمْسُونَ أَعْسِرًا بَا وَيُضْحُونَ نَبِيطًا (63)

ونفس المعنى نجده في القزوينية :

أَنَا حَالِي مِنَ الدِّزْمَا نِ كَحَالِي مَعَ النَّسَبِ
أَنَا أُمْسِي مِنَ النَّبِيبِ طِ وَأُضْحِي مَعَ الْعَرَبِ (64)

ونفس المعنى نجده أيضا في الخمرية :

...أَنَا مِنْ كُلِّ غُبَارٍ أَنَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ
سَاعَةً أَلْزَمُ مُحَرًّا بَا وَأُخْرَى بَيْتَ حَسَانٍ
وَكَسَدًا يَقْعَلُ مَنْ يَغْدُ قِلُ فِي هَذَا الزَّمَانِ (65)

والحقيقة أن الاسكندري تلميذ الشاعر أبي دلف الخزرجي المكدي وقد روى له الثعالبي أشعارا في يتيمة الدهر يمثل الاسكندري بالبعض منها في المقامة القريضية :

وَيَحْكُ هَذَا الزَّمَانُ زُورُ فَلَا يَغُرُّنَكَ الْغُرُورُ
لَا تَلْتَزِمُ حَالَةً وَلَكِنْ دُرُ بِالْبَالِي كَمَا تَدُورُ (66)

ويرى أبو الفتح الاسكندري أن الاعتماد على العقل خسارة وأن التحامق غنم فيقول في المكفوفية :

زَجَّ الزَّمَانُ بِحُمُقٍ إِنَّ الزَّمَانَ زَبُونُ
لَا تَكْذِبَنَّ بِعَقْلٍ مَا الْعَقْلُ إِلَّا الْجُنُونُ (67)

(63) المقامات ص 17 .

(64) المقامات ص 91 .

(65) المقامات ص 244-245 .

(66) المقامات ص 9 .

(67) المقامات ص 81 .

ويقول في الساسانية :

هَذَا الزَمَانُ مَشُومٌ كَمَا تَرَاهُ غَشُومٌ
الْحُمْتُ فِيهِ مَلِيحٌ وَالْعَقْلُ عَيْبٌ وَلُومٌ
وَالْمَالُ طَيْفٌ وَلَكِنْ حَوْلَ اللَّثَامِ يَحُومُ (68)

ويقول في القردية :

الذَنْبُ لِلْأَيَّامِ لَا لِي فَاعْتَبْ عَلَى صَرْفِ اللَّيَالِي
بِالْحُمِّ أَذْرَكْتُ الْمُنَى وَرَفَلْتُ فِي حُلِّ الْجَمَالِ (69)

ويقول في المجاعية :

أَنَا مِنْ ذَوِي الْأَسْكَندَرِيَّةِ مِنْ نَبْعَةٍ فِيهِمْ زَكِيَّةٌ
سَخَفَ الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ فَرَكِبْتُ مِنْ سَخْفِي مَطِيَّةٌ (70)

ويقول في الحمدانية :

سَاخِيفُ زَمَانِكَ جِدَا إِنْ الزَّمَانُ سَخِيفٌ
دَعِ الْحَمِيَّةَ نَسِيًّا وَعِشْ بِخَيْرٍ وَرَيْفٍ (71)

ومن كانت آراؤه من هذا القبيل فلا شك أنه سينظر إلى الناس نظرة احتقار .

وفعلا فهو يقول في الاصفهانية :

النَّاسُ حُمْرٌ فَجَوَزُ وَأَبْرُزُ عَلَيْهِمُ وَبَرَزُ
حَتَّى إِذَا نِلْتَ مِنْهُمْ مَا تَشْتَهِيهِ فَقَرَوْزُ (72)

(68) المقامات ص 95 .

(69) المقامات ص 97 .

(70) المقامات ص 129 .

(71) المقامات ص 156 .

(72) المقامات ص 54 .

ويرى لزوم الحيلة معهم كما في قوله في الاسودية :

نَزَلْتُ بِالْأَسْوَدِ فِي دَارِهِ أَخْتَارُ مِنْ طَيْسٍ أَثْمَارَهَا
فَقُلْتُ إِنِّي رَجُلٌ خَائِفٌ هَامَتْ بِي الْخِيفَةُ مِنْ ثَارَهَا
حِيلَةُ أَمْثَالِي عَلَى مِثْلِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَأَطْوَارَهَا (73)

ويقول عيسى بن هشام في الاصفهائية وقد أدهشه الاسكندري بحيلته على المصلين : « فبعتته متعجبا من حذقه بِزَرْقِهِ وَتَمَحَّلِ رِزْقِهِ » (74) وليس له في كل ذلك ما يحمل ضميره على توبيخه بل بالعكس فهو كثير الاعجاب بنفسه إذ يقول في السجستانية : « أَنَا بَاكُورُهُ الْيَمَنِ وَأَحْدُوثُهُ الزَّمَنِ . أَنَا أَدْعِيَةُ الرِّجَالِ وَأَحْجِيَّةُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ ... أَنَا أَبُو الْعَجَائِبِ عَايَنْتُهَا فَعَايَنْتُهَا وَأُمُّ الْكَبَائِرِ فَايَسْتُهَا وَقَاسَيْتُهَا » (75) ويقول في الموصلية :

لَا يُبْعِدُ اللَّهَ مِثْلِي وَأَيْسَنَ مِثْلِي أَيْسَا
لِلَّهِ غَفْلَةٌ قَوْمٍ غَنِمْتُهَا بِالْهُوَيْنَا
اَكْتَلْتُ خَيْرًا عَلَيْهِمْ وَكَلْتُ زُورًا وَمَيْنَا (76)

ويقول كذلك في المارستانية :

أَنَا يُنْبِئُوعُ الْعَجَائِبُ فِي احْتِسَالِي ذُو مَرَاتِبُ
أَنَا فِي الْحَقِّ سَنَامٌ أَنَا فِي الْبَاطِلِ غَارِبُ
أَنَا اسْكَنْسَدَرُ دَارِي فِي بِلَادِ اللَّهِ سَارِبُ
اغْتَسَدِي فِي الدَّيْرِ قِسِي سَأَ وَفِي الْمَسْجِدِ رَاهِبُ (77)

(73) المقامات ص ص 140 - 141 .

(74) المقامات ص 54 .

(75) المقامات ص ص 19 - 22 .

(76) المقامات ص 103 .

(77) المقامات ص 126 .

ويقول أيضا في المطيلية :

أَنَا جَبَّارُ الزَّمَانِ لِي مِنَ السُّخْفِ مَعَانِي (78)

ويقول في الاذريبيجانية ما يدل على اعجابه بنفسه أيضا وتعلقه بالكدية ومنافعها حتى إنه ينصح عيسى بتذوق حياتها حتى يعرف محاسنها :

أَنَا جَوَالِسَةُ النَّبِيَلَا دِ وَجَوَابَسَةُ الْأُفُسُقُ
أَنَا خُذْرُوفَةُ السَّرْمَا نِ وَعَمَّسَارَةُ الطُّرُقُ
لَا تَلْمِئَنِي لِسَاكَ السَّرْشَا دُ عَلَى كُدَيْتِي وَذُقْ (79)

وبالطبع فإن الكدية تقتضي خصالا عالية من صاحبها وهو يملكها ومنها التسليح بالصبر فيقول في الحرزية :

وَيْلَكَ لَسَوْلَا الصَّبْرِ مَا كُنْ
لَسُنْ يَنْتَالِ الْمَجْدَ مَنْ ضَا
تُسَمَّ مَا أَعْقَبَنِي السَّيَا
بَلْ بِهِ أَشْتَدُّ أَرْزَا
سْتُ مَلَأْتُ الْكَيْسَ تَبْرَا
قَ بِمَا يَغْشَاهُ صَدْرَا
عَتَا مَا أُعْطِيتُ ضَرَا
وَبِهِ أَجْبُرُ كَسْرَا (80)

وقد علّمته التجارب ألا تتغنى نفسه مما تكرهه النفوس فيقول في الارمنية :

يَا نَفْسُ لَا تَتَغَنِّي
مَنْ يَصْحَبُ الدَّهْرَ يَأْكُلُ
فَالْبَسْ لِدَهْرٍ جَدِيدَا
فَالشَّهْمُ لَا يَتَغَنِّي
فِيهِ تَمِيسْنَا وَغَنَّا
وَالْبَسْ لَأَخَرِ رَثَا (81)

وازاء كل هذه الخصال وكل تلك الصفات يبدى عيسى بن هشام تعجبه من بقاء الاسكندري في الحضيض فيقول في الاسدية : « وَأَتَعْجَبُ مِنْ قُعُودِ

(78) المقامات ص 249 .

(79) المقامات ص 45 .

(80) المقامات ص 120 .

(81) المقامات ص 189 .

هِمَّتِهِ بِحَالَتِهِ مَعَ حُسْنِ آلَتِهِ « (82) والجواب عن هذا قد ورد في الكوفية إذ يقول الاسكندري معبرا عن حبه للكدية ورضاه بحاله :

لَا يَسْغُرَنَّكَ النَّسْدِي أَنَا فِيهِ مِسْنُ الطَّلَبِ
أَنَا فِي ثَسْرَةٍ تُشَقِّدُ سَقُ لَهَا بَرْدَةُ الطَّرَبِ
أَنَا لَوْ شِئْتُ لَأَتَّخِذُ تَسْقُوفًا مِّنَ الذَّهَبِ (83)

وسيكون أحفاد الاسكندري أمثال السروجي وابن خزام على عرقه يرفضون الاستقرار والمناصب والجاه والثروات حفاظا على الحرية في العيش والضرب في الآفاق .

وقد وصل بنا استعراض ملاح شخصية أبي الفتح الاسكندري الخلقية والخلقية إلى حيث تتفاعل وتتمازج لكي تتولد عنها أفعال وتصرفات هي عصارة اختراعات المكدين للحصول على الرزق . فما هي مظاهر الكدية عند أبي الفتح الاسكندري ؟

4 - مظاهر الكدية عند أبي الفتح الاسكندري :

ان الكدية عند أبي الفتح الاسكندري إنما نراها بعيني الراوي عيسى بن هشام ونتبين خيوطها بفضل عقله اليقظ وقلبه العاشق للأدب وأصحابه ، فلولا عيسى لضاعت عنا كدية أبي الفتح .

لكن ما يجب ملاحظته هنا هو أن الهمداني قد غفل هنا أيضا عن ادخال الترتيب المنطقي في ضبط العلاقة بين الرجلين ، وهذا الأمر يستجيب الوقوع فيه طبعاً كتاب المقامة من بعده . ففي مجموع أربعين مقامة ذكر فيها أبو الفتح نجد عددا كبيرا منها يلتقي فيها عيسى بن هشام وأبو الفتح الاسكندري لأول

(82) المقامات ص 29 .

(83) المقامات ص 28 .

مرة وهي على الترتيب : البلخية والاسدية والبصرية والجاحظية والحرزية والمارستانية والمجاعية والعراقية والحمدانية والحلوانية والارمنية والنيسابورية والعلمية . فثلاث عشرة مقامة يتم فيها اللقاء لأول مرة بين البطلين ضعف واضح في تنسيق أحداث المقامات .

لكننا نجدهما معا في بداية المقامة وذلك في الموصلية والمضيرية والدينارية أما بقية المقامات وعددها أربع وعشرون مقامة فإن التعرف على الاسكندري يحصل بعد التعجب من فصاحته إما بأن يميظ اللثام عن وجهه وإما بأن يتفرس عيسى في وجهه وقد كان يسمع صوته ولا يراه أو هو قد غير الدهر من حاله حتى لا يكاد يعرف .

ثم ان الكدية من بعض نواحيها وهو التحيل على الناس ليست من اختصاص أبي الفتح وحده بل نجد الراوي نفسه يتحيل وذلك في البغدادية، أو هو يشارك المكدي في التحيل وذلك في الموصلية والارمنية . وقد يذهب في الظن أن كل المقامات التي ذكر فيها أبو الفتح تصور إحدى طرقه في الكدية، لكن هذا غير صحيح. فهو لا يكدي بتاتا في مقامات أربع وهي المضيرية والعلمية والوصية والخمرية . ونضيف إليها الوعظية طبعا . وقد يتصور أيضا أنه صاحب الفخاخ التي يقع السذج فيها بلا شك، لكننا نجد أحيانا ضحية جديرة بالعطف يقع في فخاخ غيره ويصاب بالضرر والهوان ، كما في المضيرية والشيرازية والارمنية . ثم ان أبا الفتح يستطيع أن يتسامى إلى مستوى الملوك فيمدحهم وينال الجزيل منهم كما يفعل أي أديب في كل تلك العصور وذلك يظهر في المقامتين النيسابورية والملوكية .

وإذا تحولنا إلى حيل أبي الفتح وأحاييله وجدنا تنوعا واختراعات بعضها قد عرف من قبل (84) وبعضها أشار إليه الشاعران المكديان المعاصران للهمذاني

(84) الجاحظ : البغدادية ص 46 وما بعدها .

وهما أبو دلف الخزرجي والاحنف العكبري (85) والبعض الآخر من وضع الهمداني نفسه . وسيستعملها كتاب المقامات بعده ويزيدون عليها .

فقد يشخذ أبو الفتح شحذا عاديا ومعه أطفاله وزوجته وهم في أنعس مظاهر الفقر والحرمان كما في الازاذية والاسدية والجرجانية والبخارية وقد يتسول وحده في الأسواق كما في العراقية أو يدعي أن له عيالا خلفهم وراءه في الفقر والجوع كما في البصرية . وقد يطرق البيوت ليلا ويستعطف ساكنيها كما في الكوفية . وهو يتلطف في سؤال الناس أحيانا كما في البلخية وكذلك الابليسية . وقد يشخذ مع كتيبة الساسانيين يقودهم من مكان إلى آخر كما في الساسانية . وقد يشخذ بأن يُرقص قردا في الأسواق كما في القردية وأحيانا يتظاهر بالجنود حتى يضمن لنفسه المسكن أو القوت كما في المارستانية والحلوانية والارمنية . وقد يكتفي بأن يدعي الخوف والحاجة إلى مأجأ أمين كما في الاسودية . وقد يتظاهر بالعمى ويشخذ في الأسواق وذلك في المكفوفية . وقد يدعي أنه في بسلاد الغربية يريد أن يتجهز للعودة إلى وطنه كما في الاذربيجانية . وقد يدعي أنه قادر على احياء الموتى أو أشباه الموتى ودرء الطوفان عن قرية أحاط بها الماء كما في الموصلية وقد يرى في بعض المقامات فارسا شاكى السلاح كما في الفزارية والملوكية ليعرض خدمته على من يريد .

لكنه في ادعاءاته قد يصل إلى الشطط فيعبت بدقدرات المسلمين ويخدعهم بما يتصل بدينهم . ألم يبع أوراقا في الاصفهانية ادعى أن عليها دعاء علمه اياه النبي في المنام ؟ ألم يره الناس في أسواق العراق يبيع الأوراق كما ورد في البلخية ؟ ألم يتظاهر بالتوبة والانابة إلى الله والرغبة في نفع المسلمين بدوائه في السجستانية ؟ ألم يدع في أشد أوقات الخطر أن له حروزا لا يغرق أصحابها ببيعها بدينار معجل وآخر مؤجل إذا نجا من معه في السفينة وذلك في الحرزية ؟

لم يتظاهر باعتناق الاسلام بعد الكفر وعقد النية على الدفاع عن أرض المسلمين
أشريطة أن يعينوه بالمال وذلك في القزوينية ؟

وله مع هذا كله مواقف في الوعظ تبدو صادقة خالصة ينعدم معها التسوّل
أو يكاد ففي البخارية وعظ واستجداء فعلا لكنه بعيد عن كل احتيال . أما
الوعظية فالوعظ فيها صادر عن نائب منيب لا رغبة له في مال . وهذه المقامة
قد أوحى إلى الحريري واليازجي بمقامتيهما الاخيرتين حيث نرى المكديين
وقد ارتقيا إلى رتبة الأولياء والصالحين بعد أن تابا توبة نصوحا .

أما في الميدان الأدبي الصرف فقد اختار أبو الفتح الاسكندري طريقة لفت
الانتباه إليه ببعض الغرابة كالصمت الطويل أو سوء الأدب إلى حد التحدي
وإثارة الاشمئزاز لكنه إذا تكلم أدهش وأفحم وهذا نتيجه في المقامات
القرىضية والجاحظية وامطانية .

وهكذا يتجلى لنا أبو الفتح الاسكندري من خلال مقامات الهمداني شخصية
فذة له في البلاغة شأن وفي الفصاحة باع ، الا أن ملامحه الشخصية يعتمرها
اضطراب مستمر من جراء عدم حذق الهمداني في رسم صورة بطله بصفة
معقولة تتطور مع الزمن تطورا منطقيا . أو ربما لعدم اكترائه بجعل المقامات
وثيقة الصلة ببعضها بعضا إلى نهايتها ، خلافا لمن سيأتي بعده من كتاب
المقامات . وكأن الهمداني لم يصنع هذا البطل إلا لظهور عبقريته الشخصية في
ميداني الشعر والنثر والتعبير عن آرائه في أهل زمانه ، لا يهجم في كل ذلك من
الجانب القصصي الا ما يشد القراء إليه ويثير اعجابهم به ويشحن ميلهم إلى
اتباع طرفه . وقد نهج الهمداني أيما نجاح في اختراعه لفن المقامات إذ قد حذا
حذوه عبر العصور وإلى عصرنا هذا كتاب استعملوا هذا الفن لمختلف
الأغراض والمقاصد .